دور النخبة والسلطة والصحافة في رسم معالم سوق الرمزيات
قراءة في الحقل الأدبي الجزائري المعاصر

مهدي سويح، وفيصل صاحبي

مقدمة

لهذا المقال قصة.. في سنة 2010 كلفنا بتنسيق ملف في إطار مجلة "مختارات الصحف" الصادرة عن مركز التوثيق الاقتصادي و الاجتماعي – وهران. كان الغرض جمع أكبر عدد ممكن من النصوص الصحفية التي تخص الأدب المعاصر في الجزائر. ومن خلال استطلاعنا لمجموعة مهمة من الصحف الصادرة باللغتين العربية والفرنسية لتلك الفترة توصلنا إلى الاستنتاجات التالية :

أولا – الأدب الجزائري وحتى العالمي لا يحضى بمكانة كبيرة في صفحات الجرائد الوطنية، الشيء الذي جعل من بعض العناوين اكتساب سمعة "جرائد النخبة" أهمها جريدة "الوطن".

ثانيا – حتى هذه الصحف الموجهة للنخبة تنتقي بين المعلومات المطروحة تلك التي تتماشى وخطها الافتتاحي، فإذا أخذنا جريدة "الوطن" كمثال، نلاحظ انعدام يكاد يكون تاما للأخبار، المختصرات، المقالات النقدية التي تتعلق بالكتب الصادرة باللغة العربية أو بأدباء معربون، وحتى وإن تم ذلك فهم يركزون أكثر على الجانب **المتمرد**[1] في العمل أو في صاحبها متجاهلين في ذلك المزايا الأدبية و اللغوية لها.

ثالثا – هو أن صحيفة مثل "الوطن" لا يمكنها مدح عمل أو كاتب إلا إذا كانت تتقاسم معه المرجعيات التالية : اللغة، الثقافة، المعتقد السياسي، الخ. وكذا رؤية مشتركة "للأدب الحقيقي" ذاك الذي كان يحمله الآباء أمثال كاتب ياسين، محمد ديب، الخ.

ولقد استعنا لتفسير ذلك برصيد بيار بورديو المفاهيمي، الذي شق لنا جملة من المسارات لتفسير التواطؤ الموجود بين الأطراف المذكورة أعلاه.

ومن المسارات التي اتبعناها و التي إعتمدناها فرضية للعمل، تلك المتعلقة بـ "اللغة" كسلعة، أي كمركز التقاء وفائدة تجمع عددا من الأطراف في سوق واحد. انطلقنا إذا من الفكرة القائلة أنه لـ "كي يكون للخطاب قيمة، كي يكون له وقع، فعليه أن يكون، ليس فقط صحيح من الجانب اللغوي و لكن عليه أن يكون مقبولا من الطرف الآخر"[2]. في الحالة المدروسة يلعب العمل الأدبي دور الخطاب المعروض على رفوف السوق اللساني، و ما يزيد ذلك تأكيدا، الانتقاء الذي تمارسه صحيفة كالوطن في الكم النحيف من الإنتاج الأدبي المحلي، لاعتبارات سنتطرق إليها بالتفصيل فيما بعد. نكتفي الآن بالقول بأن اللغة تبقى أهم هذه الاعتبارات.

أما المسار الثاني هو أننا نعتبر الأدب الناطق بالفرنسية "حقلا رمزيا" يحركه وينشط بداخله مجموعة من العملاء و يتمثل في : الصحفي والأديب و دار النشر. معتمدين في ذلك على فكرة

بورديو التي تقول أن الخطاب (العمل الأدبي) ليس مجرد منتوج كلامي و لكنه خطاب معدل ومكيف لـ "وضعية" معينة أو "لسوق" وإلا "حقل" له حدوده الرمزية. فالحقل هو فضاء اجتماعي ولكل من يشارك بداخله هدف يريد بلوغه وفائدة يود جنيها وذلك حسب المكانة التي يحتلها بداخله. وبما أن لكل حقل قواعد، فذاك الذي درسناه ينفرد كذلك بقواعده كما وضحناه في الجزء الثاني من المقال.

تم إخضاع هذين المسارين للاختبار، وذلك باستطلاع سنة من أرشيف جريدة "الوطن"، مركزين في ذلك على الصفحات الثقافية. أما السنة التي وقع عليها الاختيار، فكانت سنة 2010. غير أنه تجدر الإشارة إلى أن هذا الاصطفاء لم يكن اعتباطيا ولكن أملاه علينا حدث هام في تاريخ الجزائر المعاصر، و الذي كان له الوقع الكبير على الساحة الإعلامية ألا وهو "تأهل المنتخب الوطني لدورة كأس العالم" لنفس السنة[3]. ولكن استطلاعنا لأرشيف 2010 وكذا سبر sondage نسبي لـ 10 % من أرشيف 2011 و2012 جعلنا نستنتج، فيما يخص جريدة الوطن، بأنه لم يكن لهذا الحدث أثرا بالغا في ديناميكية المعالجة الإعلامية للمادة الثقافية بل وحافظت على الوتيرة نفسها التي شهدناها في السنوات الأخرى. ومن الاستنتاجات كذلك أن الأدب ليس حاضرا بالشكل الذي أبداه لنا حدسنا في أعمدة الصحيفة، فاستطلاع سنة كاملة من الأرشيف أسفر على 42 نصا/مقالا/مختصرة لا أكثر خص الإبداع الأدبي.

تمكنا من خلال مقاربة وصفية أولية للعينة من استخلاص ثلاثة فئات من "المتكررات"، اعتمدناها لقيمتها العملية والدلالية في التحري ل:

- ***التمرد*** وذلك لاعتماد الصحفي استخدام جملة من النعوت الضبابية في هذا الحقل اللغوي ، بدأ بالتمرد بمفهومه السياسي وذلك بإدراج والتطرق إلى مواضيع كالرقابة، النضال، نقد النظام السياسي، الخ. وصولا إلى التمرد في أشكاله الأخرى : "اللا- اجتماعي" واللا- توافقي.
- ***الشباب*** من المواضيع التي تعود دوما في النصوص المكونة للعينة، فما يجلب الانتباه هو الاتخاذ من هذا المحور/الموضوع عذرا لإبراز هرم النسق المعياري للمجتمع وعجز الأنظمة السياسية.
- ***جزائرية الكتاب وأعمالهم*** لكل حق الدفاع عن هويته والحديث فيها، ولكن الحدة التي يتم بها ذلك تدعو للتساؤل.

I. الكاتب المتمرد ومكان العمل الأدبي في سوق المنتجات اللسانية

هنالك إرادة من قبل صحفيي جريدة "الوطن" لتقديم الكتاب الشباب على أنهم الفئة التي "تجسد "النفس الجديد" للأدب الجزائري، الذين بجرأتهم استطاعوا إحداث القطيعة فيما بين أدبهم وتقليد الآباء". غير أن السؤال الذي يجدر بنا طرحه : هل يمثل هذا قطيعة بشكل فعلي؟ وهل يختلف هذا النفس الجديد عن النفس الذي نلمسه في أدب كاتب ياسين، محمد ديب، رشيد ميموني، إلخ.؟ حتى وإن كانت الصحافة تصر على أن هؤلاء الكتاب من الشباب يمثلون بعثة تيار مختلف، خلق من عدم، مع أن هذا الأمر في رأينا ينحصر في أن الأدب الشبابي ما هو إلا مواصلة للرسالة الأدبية التي جاء بها الآباء من

قبل. ولا تأتي مقولة الروائي سليم باشي إلا لتؤكد هذه الفرضية. ففي حوار أجرته معه صحيفة الوطن جعل باشي من الجملة التالية "من همي خدمة الرسالة الأدبية والحفاظ عليها كما جاء بها ياسين، بوجدرة وميموني"[4]

نحن على يقين بأن الاعتماد على مقولة وحيدة ولكاتب واحد غير كاف لتأكيد الفرضية التي جئنا بها. وهو السبب الذي أدى بنا لاستطلاع جوانب أخرى من حقل الأدب المعاصر الناطق بالفرنسية حيث تبقى قضية "المعالجة الإعلامية" للمادة الأدبية أهم هذه الجوانب.

تجدر الإشارة على أن الأدب الناطق باللغة الفرنسية يتمتع بمكانة متميزة في صفحات جريدة الوطن. فينعت بإجلال من قبل صحفييها مع أبراز "الطابع التمردي" الذي يحتويه .

1- الفرنسية، كلغة للتعبير الأدبي

في البداية سنقول أن وجه الشبه الرئيسي بين الفئة الشابة من الكتاب و بين جيل الآباء يكمن أساسا في اعتمادهم اللغة الفرنسية أداة للتعبير. غير أن "الزمنية" قد تخلق الفرق. فمن المعروف أن الآباء عاشوا وأبدعوا في زمن كان من البديهي والطبيعي استخدام هذه اللغة للتعبير عن فكرهم ورأيهم و فنهم (كما سنراه فيما بعد). فكانت تربطهم بهذه اللغة "علاقة مزدوجة "بغنيمة الحرب" هذه (...) كانت تمثل بالنسبة لهم اللغة المستعارة التي بعثوا بداخلها أحاسيسهم ونغمات لغتهم الأم" [5]. فهل يمكننا قول الشيء ذاته بالنسبة لجيل الشباب من الكتاب الذي اتخذ من الفرنسية لغة للإبداع ؟

تجدر الاشارة إلى أن اللغة الفرنسية كما هو الحال بالنسبة لموضوع الدراسة، ما هي إلا قطعة من لغز معقد نحاول إعادة تركيبه من خلال هذا التحليل.

تحاول أعمدة جريدة "الوطن" إبراز صورة للكاتب، صورة ذات معالم تكاد تكون ثابتة، فهي بناء معرفي أو بتعبير آخر : صورة نمطية للكاتب أو الأديب. استخدامنا لمفهوم الصورة النمطية هو بالمعنى الذي شرحه فيشر في قوله أن الصور النمطية هي تلك "الفئات الوصفية المبسطة التي نسعى من خلالها إلى تحديد مكان الآخر أو مرتبة جماعة ما من أفراد".

اللغة هي أكثر من مجرد وسيلة للتعبير، بل هي كذلك مرآة للمجتمع وللثقافة ولنمط الوجود. فنمط وجود "الكاتب المتمرد" هو بالتحديد ما يهمنا. بالنسبة لفريق جريدة "الوطن" لا يمكن للكاتب (الصورة النمطية لهذا) إلا أن يكون فروكوفونيا، وهذا ما نلحظه من خلال رجوع الفكرة ذاتها وفي مواضع مختلفة من الأعمدة، تلك المستلهمة من كاتب ياسين والتي تقول أن اللغة الفرنسية هي "غنيمة حرب". فتارة نقرأ في مقال يلخص محطات ملتقى حول أعمال رشيد ميموني، على لسان أحد المختصين أن الأدباء المغاربة قد تمكنوا من "تملك هذه اللغة بشكل متحرر من كل القيود" موضحا أنهم "يكتبون بالفرنسية دون أي إحساس بالذنب، فما هي في الأخير إلا لغة للكتابة ولا علاقة لذلك بالسياسة"[6]، وتارة تغدو فكرة حبيب أيوب التي نقرأها في حوار له مع الجريدة : "أنا أكتب بالفرنسية و لكن دون أن أنسى الدفاع عن هويتي الجزائرية، العربية الاسلامية"[7].

وفي كل مرة يلجأ هؤلاء إلى تعليل استخدامهم اللغة الفرنسية، إلى درجة شبيهة بالهوس، وهذا دليل على أنه هناك محاولة أو السعي لإعطاء هذه اللغة مرتبة لا ترتقي إليها في الواقع.

فالمجتمع ينطق بالجزائري، الدولة تعتمد العربية الأكاديمية، أما مستخدمي اللغة الفرنسية فهم مهددون من قبل حركة التعريب المكثف.

أ- أصل الصراع الرمزي

اختيار اللغة الفرنسية من دون اللغة العربية للتعبير يجعلنا نعتقد أنه تصرف متمرد. في زمن ماضي كانت فيه اللغة الفرنسية تعلم في المدارس بل وكانت أداة لتلقين المعارف، وكانت الإدارة تتكلم بالفرنسية، وحتى النصوص القانونية كانت تصدر بهذه اللغة (باشرت الجريدة الرسمية في إصدار نسختها العربية في سنة 1967). فكان من العادي أن نجد المتعلم ينطق بلغة مستعمر بلده السابق[8]، إذ لم يتحكم طوال حياته في لغة غير هذه. تقول في هذا الصدد خولة طالب الإبراهيمي "ما يدعو للحيرة هو أن استخدام اللغة الفرنسية ازداد انتشارا بعد 1962" والسبب راجع إلى أن الدولة كانت بحاجة إلى التعامل والتعاون مع أطر "المستعمر"، وذلك للنقص الذي عانت منه الجزائر في الكم الكافي من المؤطرين لمختلف مؤسساتها. غير أن هذا الزمن قد ولى، وسببه الزحف النوعي الذي عرفته اللغة العربية وفي جميع المجالات، إلى حد القضاء على الفرنسية، الند التاريخي لها. ألا يمكننا تفسير الإبقاء على اللغة الفرنسية، لغة للتعبير الأدبي، على أنه رد فعل رافض لثقافة تحاول الدولة جاهدة تعزيزها و ذلك مند1962 ؟ [9]

حسب رأيينا، ما يملي اللجوء إلى التعريف بالكتاب المتمردين من قبل بعض العناوين الصحفية هو نفس هذا المنطق. فما هو ملاحظ هو أن الصحافة الفرونكوفونية هي في الوقت الحالي، صحافة تغدو في طريق الاضمحلال. في مقال لخولة طالب الإبراهيمي نشر بمجلة عام المغرب سنة 2004 تقول فيه ما يلي: "لا تزال اللغة الفرنسية تحتل مكانة معتبرة في مجال الإعلام (...)(غير أنها) في الوقت الحالي تعاني من زحف الصحافة الناطقة بالعربية، هذه التي استفادت من حملة تعريب التعليم المكثف وذلك مند الثمانينات"[10]. هذه المكانة التي طالما حضيت بها الصحافة الفرونكوفونية بدأت تتقلص شيئا فشيئا في السنوات الأخيرة، وخير دليل على ما نقول المرتبة التي تحتلها جريدة "الوطن" وهي أهم هذه الصحف من حيث عدد النسخ المطبوعة في اليوم الواحد (133000نسخة) لتحتل بذلك المرتبة الرابعة بعد الجرائد التالية: الشروق بـ 531984 نسخة، الخبر بـ465227 نسخة وفي الأخير النهار بـ365000 نسخة[11]. فتكون الحصيلة بالتالي غالبية من القراء المعربين، مقابل أقلية من "القراء الكلاسيكيين"- كما قد يدعوهم جمال غريد - ذوي ثقافة فرونكوفونية يتعذر عليها إعادة إنتاجها. أما عن تعريف هذه الصحافة بالكتاب المفرنسين ما هي إلا رد فعل استراتيجي الهدف منه الحفاظ قدر الإمكان على إرث لغوي في طريق الإندثار.

ب- الرهان اللغوي

قد تفيدنا نظرية الأملاك اللسانية في تفسير التواطؤ الموجود بين فريق جريدة "الوطن" والكتاب الفرونكوفونيين. ما يتحكم في تلقي الخطاب الذي حاله حال كل منتوج حسب بورديو متوقف على القيمة التي تحدد له. فالصحافة في هذه الحال، هي الوحيدة القادرة على "تحديد" قيمة المنتوج، أو على الأقل تعتبر نفسها كذلك.

يعتبر بورديو أن التبادلات اللسانية تخضع إلى

نفس القواعد التي تسير الأسواق الاقتصادية الأخرى، فحسب رأيه هناك تواجد للسوق اللساني "في كل مرة يكون هناك منتج للخطاب موجه لطرف له القدرة على تقييمه واختباره و تحديد سعر له "[12] . فالكاتب الفرونكوفوني هو بمثابة المنتج للخطاب، و كتاباته سلعة يعرضها على جمهور قادر على تقييمها غير أنه بالنسبة للحالة المدروسة لا يكون التقييم على أساس الميزات الأدبية (السردية، الأسلوبية، التنميقات اللغوية) ولكن ما يقيم هي قناة التعبير نفسها، أي اللغة المستعملة في التحرير الأدبي.

ما أسفر عنه استطلاعنا هو أن النصوص المقيمة والمنتقدة من قبل صحفيي جريدة "الوطن" هي تلك المحررة باللغة الفرنسية. في حين نشهد إقصاء تاما من هذا السوق للكتاب المعربين كما تشير إليه تومي أم الخير في أطروحتها، فمن جهة المواضيع المعالجة من قبل هؤلاء تتناقض والخط الافتتاحي المعتمد من قبل الجريدة ومن جهة ثانية هو أن صحفيي "الوطن" جد متأثرين "بالثقافة الغربية" و متبعين للتيار "الحداثي" الشيء الذي يجعلهم يدافعون على معايير كاللائكية ويجعلون مهمة الدفاع عن اللغة الفرنسية - هذا الموروث الثقافي - واجب عليهم.[13]

تجدر الاشارة إلى أنه حتى وإن كانت تومي أم الخير تنفي تواجد أي مقال أو مختصرة متعلقة بالأدب الناطق بالعربية ضمن صفحات هذه اليومية، فلقد تمكنا من خلال الاستطلاع الذي قمنا به من العثور على 5 نصوص (من بين 42) تشير إلى أعمال كتبت باللغة العربية. غير أن هذا العدد غير كاف لنفي أطروحة جمال غريد القائلة بأنه في الجزائر يتعايش مجتمعان أثنين، الأول محافظ ومدافع على التقليد ومعرب والثاني حداثي لائكي و مفرنس، يدير كل واحد منهما ظهره للآخر. وبالتالي وجود سوقان لسانيان لكل رصيده الثقافي، عالمان رمزيان يسيران في تواز دون أن تكون أدنى إمكانية للتواصل فيما بينهما [14]. وتأكد في الوقت نفسه الفكرة التي يحملها غرانغيوم والقائلة بأن "المجتمع الجزائري ليس مرتاحا بلغاته، يستعمل اللغة الفرنسية في الرفض و تجعله اللغة العربية حبيس الغرابة شرق أوسطية ويتكلم لغته الخاصة (العامية) في العار"[15]. تماما كما هو الحال بالنسبة لجيل محمد الديب، تمثل اللغة الفرنسية بالنسبة للجيل الجديد من الأدباء والكتاب "لغة مستعارة"، غير أن الاختلاف يكمن في أنه يضاف إلى هذه الاستعارة - بالنسبة للفئة الثانية - الإحساس بالرفض للغة المفروضة من قبل الدولة.

ولا يأتي هذا الاستنتاج إلا لتأكيد البديهي الذي نحاول نفيه : اللغة ليست محايدة، فاستعمالها يعود إلى تحديد موقفه داخل المجتمع والتعبير ولو بشكل غير صريح على اقتناعاته السياسية. التمرد بالنسبة لفريق "الوطن" إذا هو أولا وقبل كل شيء استعمال "لغة" للتعبير، ولكن كذلك طريقة لقول الأشياء والتعبير عن الرفض للواقع المعاش.

2- رشيد ميموني، الرافض للوضع الراهن

من أشكال التمرد التي تركز عليها جريدة "الوطن" كذلك هي تلك المتعلقة "بالوضعية الرافضة للنظام السائد"[16] . ويتجلى ذلك في صورتين مختلفتين و متكاملتين في الحين ذاته : أولا، اللااجتماعي. ثانيا : عداوة النظام (السياسي). من أجل تفسير ذلك سنتخذ من

رشيد ميموني نموذجا، أي الأديب المجسد للأدب التمردي بامتياز.

أ- عدو النظام

في تقرير من إعداد ياسمين بوشان، تعطي الصحفية أهمية بالغة للعلاقة التي كانت تربط ميموني بالنظام السياسي والمضايقات المستمرة التي كان يواجهها الكاتب من قبل النظام، الذي لم يكن يتقبل النقد اللاذع الذي كان يوجهه له ريشة ميموني، و لتوضيح ذلك تستدل الصحفية بمقولة للكاتب جاء فيها ما يلي : " قبل 1988 كنت استدعى باستمرار من قبل الشرطة، في كل مرة كنت ألقي فيها محاضرة كان يتم استدعائي في اليوم الموالي". أما بالنسبة للروايات التي تكشف الجانب "المضاد للنظام" عند ميموني حسب رأي ياسمين بوشان هي : « Une peine à vivre »، « Tombéza » واللتان تعالجان قضية موت وانحرافات النظام العسكري الاشتراكي التي شهدتها تلك السنوات" [17].

أ. إنتقاد وطن فاقد للمعالم

دائما حسب ياسمين بوشان يوجه الكاتب من خلال روايته *Le fleuve détourné* انتقادا حادا للمجتمع الجزائري في الفترة ما بعد الاستقلال، أين ينعته بمجتمع فاقد للمعالم الاجتماعية، الثقافية والهوياتية وفاقد للذاكرة.

ج. التطرف وليد الانحراف

التطرف الديني في الجزائر ما هو حسب ميموني إلا نتيجة طبيعية لأزمة الهوية وحالة النسيان التي يعاني منهما المجتمع، فالأمة التي تجهل من أين أتت يصعب عليها شق طريق السلام. سنة 1988 تشكل منعرجا في الخط الأدبي لميموني، فكتاباته الأخيرة (« De la barbarie en général et de l'intégrisme en particulier ») حاول فيها التطرق إلى مشكلة فقدان الذاكرة الذي بات الجزائريون يعانون منه.

II. التواطؤ من خلال ثلاثة أسئلة

مثلما ذكرنا سابقا فإننا نظن أن التمرّد في هذه الحالة هو " نسق" وليس بالإستراتيجية الواعية. يجد هذا (النسق التمرّدي) أسسه وتجلياته في ظاهرة التواطؤ (connivence) بين الفاعلين المكونين للنسق.

بالنسبة لبورديو، هذا راجع إلى كون الحقل الأدبي محكوم مثله مثل الحقل الصحفي بمنطقي الجزاء و الاستفتاء [18]. لكن هل هذا كافٍ لتفسير هذه الحالة ؟

- من أجل تحليل هذا النسق الثالوثي للتواطؤ، نعتقد أنه لابد من إدراجه على شكل مخطط من ثلاثة مستويات ممثلة في ثلاثة أمثلة من عيّنة الدّراسة : الصحفي، الكاتب وأخيرا النّاشر. الهدف من هذا التحليل هو وصف دور التواطؤ بين الفاعلين الثلاثة لخلق " عالم تمرّدي".

1. حديث في التواطؤ

إلى أي حد يمكن أن يمتد التواطؤ بين الصحفي وأحد الفاعلين في الساحة الإعلامية (كاتب في هذه الحالة لكن يمكن أن يكون سياسي) ؟ صداقة ؟ علاقة إيديولوجية ؟ و أخيرا، في أيّ إطار يمكن معالجة هذه الظاهرة ؟ ضمن الإطار العام أم ضمن الإطار الخاص والشخصي؟

من منطلق أن علاقات التواطؤ هذه تبدو للوهلة الأولى علاقات شخصية، لكن يمكنها أن تُضمَن في عملية إنتاج مادة إعلامية، تتأثر بها وتكيفها، فإننا نعتقد أن الحديث عن هذه الظاهرة هو حديث في الشأن العام.

ما يمكن أن يبدو على أنه شأن خاص هو في الحقيقة أمر عام. في هذا الاتجاه نعتبر حالة

الصحفي فيصل ميطاوي جديرة بالتأمل. فهو كاتب لسبعة مقالات من عينة الدراسة، و فاعل هام في مؤسسة (الوطن - ثقافة) يمكن أن نرى فيه أحسن تمثيل لهذا النسق التواطئي. في استحالة الرجوع إلى مواد بحث أكثر "موضوعية" ومن أجل تحليل علاقات التواطؤ بين الفاعلين في هذا النسق، كان لابد لنا من استعمال مواد شخصية حول الفاعلين لكنها تنتمي إلى الشأن العام :

أ. سيرته كصحفي و فاعل اجتماعي (نضال سياسي، جمعوي، إنتماء)

ب. صفحته على الفايسبوك انطلاقا من مبدأ أن ما ينشره، ما "يحبه" عن إرادة وفي إطار مفتوح (أي أن كل الناس يمكن أن ترى جداره على الفايسبوك) هو ذو علاقة بالشأن العام.

رغم كون فيصل ميطاوي صديق - افتراضي على الأقل - مع سفيان حجاج مدير منشورات البرزخ (الفاعل الثالث في نسق التواطؤ) لا يحمل دلالة خاصة في حد ذاته، باعتبار أن الأوّل يملك أكثر من 5000 صديق على الشبكة الاجتماعية الأكثر شهرة، لكن هذا الأمر يعطينا تصورا أوليا عن مستويات التواطؤ. فضمن السبعة مقالات كتبها فيصل مطاوى، والتي تنتمي إلى عينة البحث، ستة منها تتحدث عن منشورات "البرزخ" أو أحد كتابها.

يجد هذا التواطؤ دلالة خاصة، بالرجوع إلى العلاقات الوطيدة بين الصحفي وبعض من الكتاب الذين يقدمون (كمتمردين) على صفحات جريدة "الوطن". لهذا الغرض يمكن الرجوع إلى حلقة صداقاته [19] على الفايسبوك واتجاهات ما ينشره، ليتجلى لنا كيف تنعكس في اختيار مواضيعه و مستجوبيه على صفحات الوطن. بالإضافة إلى هذا فإن قرابته من حركة "بزّاف"، إحدى الحركات المواطناتية، التي تهدف إلى التغيير السياسي، والتي بدأت على شبكة الانترنيت، هو أمر يعلق عليه في أكثر من موضع على حسابه في الفيسبوك وعلى مدوّنته الشخصية. [20] نجد كثيرا من مؤسّسي هذه الحركة (كمال داود، مصطفى بن فوضيل، عدلان مدي، شوقي عماري) هم إمّا صحفيون في جريدة "الوطن" أو كتاب تنشر أعمالهم في دار "البرزخ". حين يحاور فيصل مطاوي الكاتب حبيب أيوب [21] على هامش ملتقى علمي حول أعمال رشيد ميموني، فإننا نستشف في هذا الحوار كثيرا من الصداقة.

صداقتهما هي في دفاعهما على نفس القضايا السياسية تقريبا، و كذلك في اعتقاداتهما حول ما يجب أن يكونه الأدب والعمل الروائي. فرغم أن الموضوع الرئيسي للحوار هو أعمال الرّوائي رشيد ميموني وتوظيفه للتراث، فإننا نجد أن العنوان المختار للحوار هو : "لا وجود لأدب دون تمرّد".

2. هل يمكن للنقد الأدبي أن يصنع الأديب ؟

في كتاب منشور سنة2009 [23]، يُعرّف ميشال ماري " الموجة الجديدة" في السينما الفرنسية على أنها قبل كل شيء "شعار صحفي ألحق باتجاه نقدي" [24] ويقوم نفس الكاتب بالعودة إلى "العلاقات الغامضة" بين "الموجة الجديدة" كتيار سينمائي، و "دفاتر السينما "، المجلّة المؤثّرة في عالم النقد السينمائي. لقد تعاملت ثلاثة أسماء مهمة ضمن الموجة الجديدة هي : فرانسوا تريفو، جون لوك غودار و جاك ريفات مع مجلة "دفاتر السينما"، قبل أن تخرج أولى أفلامها.

هل يُمكننا إذن - دون السقوط في فخ الاختصارات التاريخية السريعة - أن نقارن بين هذه الحالة التاريخية، والعلاقات "الغامضة" كذلك بين جريدة "الوطن" والأدب الشبابي الذي تسعى إلى تمجيده ؟ هل هناك حالات أخرى، غير المشار إليها أعلاه، إستفادات من نفس التغطية الإعلامية ؟

ضمن العينة المدروسة، هناك اسم يجلب الأنظار: سليم باشي. هذا الكاتب المولود في الجزائر سنة 1971، والذي غادر إلى فرنسا للدراسة فيها بعمر الخمسة والعشرين، هو الكاتب الأكثر تغطية إعلامية سنة 2010 على صفحات "الوطن" : تم تخصيص ما لا يقل عن 6 مقالات من أجل الحديث عن نفس الكتاب [25].

هل يمكن إدراج هذا الأمر ضمن خانة المعاملة الخاصة ؟ من أجل الإجابة عن هذا السؤال يجب أولا الإجابة عن سؤال آخر : هل هناك كاتب آخر استفاد من نفس التغطية الإعلامية على صفحات الوطن ؟ الكاتب الآخر الذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث التغطية الإعلامية هو رشيد بوجدرة، بمناسبة إعادة نشر أحد أعماله من طرف دار نشر "البرزخ " (سنعود إلى هذه الحالة لاحقا).

إن الأمر الأكثر دلالة في هذه الحالة، هو الطريقة التي نتحدث بها عن سليم باشي في جريدة "الوطن" : نفس الصحفي كتب كل المقالات التي موضوعها سليم باشي، و بطريقة لا تخلو من المدح. فيوصف تارة "بالأديب الأكثر تميزا في الجزائر" [26] وتارة أخرى "بالموهبة الفذة والكاتب الذي لا يمكن تفاديه" [27] في حين أن عمله الروائي يقدم على أساس أنه "الرّواية التي تحمل آمال الجزائر" [28].

إن ما يُلاحظ في الصفحات الثقافية لجريدة "الوطن"، أن الحدود بين العمل الصحفي والنشاط النقدي دوما ما تكون ضبابية، فكثيرا ما يتجاوز الصحفي دوره في نقل المعلومة أو كوسيط بين الحدث والجمهور. نفس الصحفيين تقريبا في الصفحات الثقافية الذين يعملون في العادة على التغطية الإعلامية، يغيرون أدوارهم فينقلبوا نُقادًا. ينتقلون من العمل الإخباري إلى العمل النقدي بسهولة متميزة. فيمكننا أن نلاحظ ريمي ياسين، أحد أقلام الصفحات الثقافية، يقوم بتغطية ندوة صحفية لكاتب ما، ثم يكتب خبرا قصيرا يُعلن فيه اختيار إحدى روايات هذا الكاتب لجائزة أدبية ، ليخصص له أخيرا مقالا نقديا يكيل له فيه المديح و يختمه بالعبارة التالية : "لقد حان الوقت لكي يحصل سليم باشي على جائزة أدبية كبيرة. سيكون من الظلم عدم تحصله على جائزة الرونودو Renaudot هذه السنة". [29]

هل يمكن اعتبار هذه الحالة بالتحديد ضربا من أضرب "التواطؤ اللّاواعي" الذي يحكم العلاقة بين الحقليين الأدبي والصحفي، كما يشير إليه بيار بورديو في كتابه "حول التلفزة" [30] ؟ وحالة من حالات "الألفة التي تنشأ بين وسائل الإعلام والمرتادين عليها" [31] ؟ وهل يتوقف هذا التواطؤ على عتبة ثنائية : الكاتب – الصحفي ؟

3- دار النشر الأسطورة

إنّ دار نشر البرزخ هي حالة فريدة في صناعة الكتاب في الجزائر. أو على الأقل تريد أن تظهر كذلك. هي دار نشر تأسست من طرف ثنائي : سلمى هلاّل و سفيان حجّاج. كلاهما رجع من فرنسا أين كانا يدرسان، الأولى في العلوم السياسية، و الثاني في الهندسة. فبعد أن تزوجا

أسسا دار النشر هذه. لكن ما يميز هذه الأخيرة، غير الطابع التقليدي والفني الذي تنظر من خلاله لعالم النشر، هي العلاقة التي تربطها بوسائل الإعلام و بالخصوص وسيلة إعلامية واحدة : جريدة "الوطن". فمن ضمن الاثنين وأربعين مقالا التي تُشكل عيّنة بحثنا، نجد ثلاثة وعشرين لها علاقة مباشرة بعالم الأدب بالجزائر : نعني بهذا أنباء عن إصدارات جزائرية، حوارات ومقالات مع كتاب جزائريين، ومقالات نقدية حول أعمالهم. خمسة عشر من مقالا تهمّ بصفة مباشرة أو غير مباشرة دار نشر "البرزخ".

السؤال الذي يطرح للوهلة الأولى : هل يمكن تبرير هذا التواجد الإعلامي ؟ سيكون من الخاطئ، على الأقل منهجيا، أن نتحدث عن الجودة، أو أي معيار قيمي لتبرير هذا التواجد. السبيل الوحيد إذا لتبرير موضوعية هذا التواجد (أو لا)، هي بمقارنة عدد مقالات دار النشر مع دور نشر أخرى بالنسبة لعدد الكتب التي نشرتها سنة 2010 . في الوقت الذي تم تخصيص، سنة 2010 في جريدة "الوطن"، 15 مقالا لدار نشر "البرزخ" ولكتّابها (نشروا 10 أعمال) لم يتم تخصيص ولا مقال لكتاب و مؤلّفي دار نشر "الشهاب". رغم أنّ الدارين نشرتا نفس العدد من الكتب سنة 2010.

دار "القصبة" من جهتها استفادت من مقال واحد في حين أنها نشرت ثمانية أعمال روائية سنة 2010. لهذا لا يُمكن تبرير تواجد الإعلامي لدار "البرزخ" بحجة تناسبه مع عدد الكتب المنشورة.

إن تفسير هذا الأثر في اعتقادنا هو في نقطة أخرى، تلك التي نجد بوادرها في إستراتيجية *شخصنة* العلاقات بين الفاعلين في النسق : البرزخ - الوطن. فالبرزخ هي قبل كل شيء سلمى هلاّل و سفيان حجاج. هذا الثنائي اجتمع حول وبفضل حب الكتب و الآداب. ففي عملية الإخراج الإعلامية هذه، علاقة الإثنين هي في نفس الوقت إبداعية وعاطفية، بالإضافة إلى إرادة القول هناك إرادة أخرى، تلك التي نلحظها في *أسطورة البرزخ (بالمعنى البارثي)* أي إرادة الظهور في صفتين تمثلان التيمتين الأساسيتين في إستراتجية اتصالهما :

- الشغف بالكتب والآداب
- النشر باعتباره فعل ملتزم ومتمرد.

حول التيمة الأولى يُمكن أن نقرأ في تقديمهما للموقع الإلكتروني لدار النشر : " كل شيء إنطلق من الولع بالكتب. رفقاء درب منذ القدم . يُعمّرون فضاءنا و يعيشون معنا منذ الأزل. منذ أن كنا طلبة في المهجر أثناء سنوات التسعينيات، كنا مصابين بحمى القراءة، لكنّ كنّا قلقين حيال غياب النشر الأدبي في الجزائر."[32]

هذه التيمة تعود باستمرار في عناصر الخطاب الذي تمارسه "البرزخ" مع جريدة "الوطن" سواء كان ذلك بقلم صحفي من الجريدة، كما هو الحال في الملف[33] الذي أعدته الجريدة بمناسبة احتفال دار النشر بمرور عشر سنوات على تأسيسها، أو على لسان أحد أعضاء دار النشر في حوار معه[34]. يُمثل الشغف بالكتب و الآداب الذي تحاول دار النشر عرضه أمام الملأ عنصرا من عناصر اكتساب المشروعية (légitimation) على المستوى الخطابي، ومنهجا للتميّز على مستوى التسويق، لكنه يسمح في كل الأحوال بتطوير شبكة من العلاقات الشخصية مع الصحفي حول تيمة الشغف.

أما القيمة الثانية المؤسّسة لأسطورة البرزخ فتلك المتعلقة بفعل النشر باعتباره فعلا ملتزما ومتمردا في نفس الوقت، ذلك يتجلى على سبيل المثال في اختيار صحفي "الوطن" فيصل ميطاوي للعنوان التالي لحواره مع سلمى هلال : "العمل على توفير الجمال هو في حد ذاته مقاومة" و في مقال أخر، بمناسبة تحصل "البرزخ" على جائزة الأمير كلوز، دائما بقلم فيصل الميطاوي، يتم تقدير الدار باعتبارها "قطعت وبطريقة مبدعة، خطر العزلة الثقافية التي كانت تهدد البلاد"[35]. انطلاقا من هاتين القيمتين، يؤسس مديرا دار "البرزخ" اتصالا شخصيا مع جريدة "الوطن" وليس اتصالا مؤسساتيا كما هو الحال في مثل هذه الظروف. إذ أنهما ليسا في منطق النشر فحسب، لكن في منطق آخر، هو منطق الإبداع و المبدعين، و يُصرّان اتصاليا، على الظهور بهذه الصورة، ففي الوقت الذي تمارس فيه دور النشر الأخرى اتصالا إشهاريا، تمارس دار "البرزخ"، من خلال شخصنتها للعلاقات، اتصالا من مستوى آخر هو اتصال العلاقات العامة.

الخاتمة

ما يمكن استنتاجه فعالية النسق تكمن في مدى قدرة الأطراف المذكورة أعلاه (الكاتب – الصحفي – الناشر) في تحويل العلاقات الشخصية والحميمية إلى علاقات موضوعية، مهيكلة لحقل رمزي يعكس انتماءاتهم الفكرية، وهي ذي الانتماءات الفكرية التي تكون بمثابة الرصيد الثقافي الذي يحمله كل واحد من هؤلاء الأطراف، الآبيتوس (الناطق بالفرنسية) الذي يخلق لهم مكانا داخل نفس هذا الحقل. وما هذه إلا إستراتيجية الغرض منها أن تعود بالفائدة على كل الأطراف : "الاعتراف" ببعضهم على أنهم كتاب/أدباء أو ناشرين، والمحافظة على الثقافة الفرنكوفونية بما تحمله من أفكار حداثية بالنسبة للآخرين.

مهدي سويح، و فيصل صاحبي

جامعة هران

الهوامش :

❖ أستاذ مساعد قسم علم الاجتماع، جامعة وهران – الجزائر

❖❖ أستاذ مساعد قسم الاعلام و الاتصال، جامعة وهران – الجزائر

[1] كلمة "متمرد" هي في الواقع ترجمة تقريبية لكلمة subversif، التي يقابلها في المعاجم كلمة : "مدمر". غير أن الغرض من الأدب "التمردي" أو "التصرف المتمرد" بصفة عامة ليس التدمير ولكن "الغدو عكس التيار" أو "رفض الوضع السائد"، وبالتالي ارتأينا أن كلمة "متمرد" هي الأقرب من الفكرة المراد تطويرها في هذا النص.

2- Bourdieu (Pierre), *Questions de sociologie*, Tunis, CERES, 1993, p. 123.

[3] تحولت العديد من عناوين الصحف الوطنية في الفترة التي تلت التأهل إلى منابر للدفاع على، أو محاولة التعريف عن والهوية الوطنية. و ما أكثر الجامعيون والسياسيون والوطنيون الذين سمحت لهم هذه الصحف من خلال فتحها أعمدتها لأقلام هؤلاء أن يكونوا أطرافا من النقاش، و الجميع يذكر تلك النقاشات التي الحادة التي كانت الشروق والنهار و le Quotidien d'Oran مسرحا لها. أما بالنسبة لجريدة الوطن نستطيع اعتبارها "الشاذ الذي يؤكد القاعدة".

4 - « Salim Bachi en lice pour le Renaudot », propos recueillis par Yacine (Rémi), *El Watan* du 13-09-2010.

5 - Mokhtari (Rachid), *Le nouveau souffle du roman algérien (Essai sur la littérature des années 2000)*, Alger,. Chihab, 2006, p.23-24

6 - Métaoui (Fayçal), « Le patrimoine populaire dans le roman algérien » (compte rendu, colloque), *El Watan*, 06-04-2010

7 Ayyoub (Habib), « Pas de littérature sans . subversion », propos recueillis par Métaoui (Fayçal), *El Watan*, 06-04-2010

8 Taleb Ibrahime (Khaoula), « Coexistence et concurrence des langues », in *L'Année du Maghreb*, 2004, pp. 207-218

9 - و في هذا الصدد سجل غرانغيوم أنه في هذه الفترة "كان من الضروري استعادة اللغة العربية المكتوبة، الغرض من ذلك إعطاء المرجعية التاريخية والثقافية وحتى الدينية لمكانة الجزائر. كيف يمكننا تحبيب الأصل كان داك هو الإشكال"

Grandguillaume (Gilbert), « Langue, enjeu politique », in *Esprit*, Janvier, 1995.

10Taleb Ibrahime (Khaoula). op. cit.

11 - مهم أن نشير إلى أن الصحافة موجهة إلى العامة و التي تعد في الوقت الحالي معربة و بشكل كبير فمن البديهي إذا أن نسجل العدد الأكبر من القراء للصحف الصادرة باللغة العربية، في حين "الاستهلاك" الأدبي يخص النخبة و التي لا تزال مفرنسة. نفس الملاحظة نسجلها في الفضاء الافتراضي، و يشرح فيصل صاحبي ذلك في مداخلة له، إذ يقول: " الفضاء الافتراضي الجزائري العام في نسخته 2.0 يمثل بديلا للجامعة كما يجب عليها أن تكون، أي فضاء للتبادل محافظة في ذلك على الثنائية الثقافية التي نشهدها بها. فبواسطة وسائل الإعلام البديلة هذه أصبحت "لمستعمل الأنترنت الشائع" القدرة على التعبير عن آرائه، فالمستعمل الشائع متواجد وبقوة في الفضاء العام أكثر من أي وقت مضى، مثبتا وجوده كفئة شائعة. تمام كسابقه الطالب الشائع، مستعمل الأنترنت الشائع ذا ثقافة عربية إسلامية. فلا غرابة في أن المواقع الجزائرية التي تسجل العدد الأكبر من الزيارات هي مواقع الصحف الوطنية الناطقة بالعربية."

12- Sahbi (Fayçal), « Médias et politique en Algérie : les paradoxes d'une démocratie », communication au « Médias, internet et démocratie », organisé à la Nouvelle Université Bulgare, Sofia, 23 avril 2012.

13Bourdieu (Pierre), *op. cit.*, p. 123.

14- تومي (أم الخبر)، "الخطاب الإعلامي والازدواجية الثقافية في الجزائر"، دكتوراه علوم في علم الاجتماع، تحت إشراف جمال غريد، جامعة وهران، 2011، ص. 214

15- في نص صدر بمناسبة العيد العاشر لتأسيس دار نشر برزخ، جلب انتباهنا تعليق للمديرة المساعدة تقول فيه أن الساهرين علي هذه المؤسسة لهم مهمة "تحطيم الجدران...تمكين الفرونكوفونيين للإطلاع على ما يكتب بالعربية من الأدب و العكس." (*El Watan*, 27/02/2010) و لكن في الواقع نشهد أن العناوين الصادرة بالعربية تمثل أقل من 5 بالمائة من الفهرس التي تقترحه دار برزخ، و هذا ما يؤكد أطروحة الإزدواجية الثقافية.

16- Grandguillaume (Gilbert), *op. cit.,* pp. 18-20

17- Bouchène (Yesmine), « Rachid Mimouni, éternel étranger en son pays », *El Watan* du 12-01-2010

18 -*Ibid*.

19 Bourdieu (Pierre), *Sur la télévision*, Liber-Raisons d'agir, Paris, 1996.

20https://www.facebook.com/faycal.metaoui

21 -http://metaoui.skyrock.com/

22- Ayyoub (Habib), « Pas de littérature sans subversion », *op. cit.*

23 -Marie (Michel), La nouvelle vague, , Armand Colin, Paris 2009

24 -Ibid, p.. 8

25Bachi (Selim), *Amours et aventures de Sindbad le Marin*, Editions Gallimard.

26- Yacine (Rémi), « Salim Bachi, en lice pour le Renaudot », El Watan, 13-09-2010.

27Yacine (Rémi), « Quand le dormeur se réveille », El Watan, 05-10-2010.

28- Yacine (Rémi), « Salim Bachi, en lice pour le Renaudot », El Watan, 13-09-2010

29-Yacine (Rémi), « Quand le dormeur se réveille », El Watan, 05-10-2010.

30- Bourdieu (Pierre), Sure la télévision, op. cit.

31- Ibid, p. 21

32http://www.editionsbarzakh.dz/index.php?option=com_content&view=article&id=4&Itemid=2

33 -« Les dix ans de Barzakh », Ameziane Ferhani, 27-02-2010.

34 - « Travailler à offrir du beau, c'est un peu faire acte de résistance », interview avec Selma Hellal par Fayçal Métaoui. *El-Watan*, 17-09-2010.

35- « Le Grand prix Prince Claus à Barzakh », Fayçal Métaoui, *El Watan*, 06-092012.